الآراء الاخيرة في الادوار الجليدية وتأثيرها في الانسان

لجناب العالم الفاضل الدكتور شبلي افندي شميّل

لم يَرِد على الانسان سؤال اصعب من سؤاله : ما هو الانسان . فان هذا السؤال شغل منذ نشأت الفلسفة واشتغل به جميع الفلاسفة ومع ذلك بقي زمانًا طويلاً ولم يتحوَّل عما تركهُ عليهِ مؤسسا المدرسين القديمين طالس وفيثاغورس وما ذلك الاَّ لفهام الانسان حكمًا في مسئلة لا يسلم فيها من الغرض مع انقياده في احكامه الى التصوُّرات الشعرية والافكار الوهمية والمبادىء الخرافية . ولذلك لم يتيسر البحث عن الانسان بحثًا علميًا حتى زعزعت العلوم الطبيعية هذه المبادئ الفلسفية في الاعصر المتاخرة فانحصر البحث في هذه المسألة في علم الانثروبولوجيا اي علم الانسان والسوسيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني

وعلى ذلك فعوضًا عن ان يصعد الانسان بالتصور الى الطبقات السماوية ليبحث عن اصل الانسان فانهُ ينظر اليهِ في المكان الذي ينشأ فيهِ ويشبُّ ويموت ولا ينتقل الى غيره من الابحاث الطبيعية الاَّ عند الضرورة لارتباط العلوم الطبيعية بعضها ببعض ارتباطًا شديدًا بحيث يتعذر البحث في علم منها بدون الاستناد الى ما ثبت في سلم العلوم . فالسوسيولوجيا لما كانت اصولها في علم البيولوجيا اي علم الحياة كان اعتناء علماء عصرنا بدروس فروع البيولوجيا لتاسيس علم الانسان لا يماثله اعتناء . ثم ان معرفة حقيقة هذا العلم متوقفة ايضًا على امر مهم من متعلقات علم الفلك وهذا الامر هو مبادرة الاعتدالين وهو وان كان مذكورًا في جميع كتب الهيئة منذ هيبرخوس الاَّ انهُ لم يكن احد يظن قبل الآن ان لهُ تعلقًا بنمو الانسان وأما الآن فيعتبر عند جمهور الجيولوجيين انهُ سبب حصول الادوار الجليدية في اوقات معينة . وقد ظهر من الابحاث الدقيقة ان بين الانسان وبين الادوار الجليدية نسبةً شديدةً بحيث تؤثر في نموه وقدته وبهذا الاعتبار تنبئنا عن ماضيه ومستقبله بامور كانت تبقى مجهولةً لولا ذلك ولهذا لا بد قبل الشروع في هذا البحث من التكلم قليلاً عن الادوار الجليدية على ما يذهب اليهِ جمهور الجيولوجيين تمهيدًا للموضوع فنقول

رأى الجيولوجيون في نقيم بعض الجبال ان سطح الصخر الذي يؤلف جانب الجبل املس وعليهِ شلوم متوازية كانها مصنوعة بالازميل (انظر وجه ١٩٥ من السنة الثانية) ورأوا ايضًا حجارة هائلة بعضها مبدَّد في منحنى الجبل من سفحهِ الى قمتهِ وبعضها بعيدٌ عنهُ في السهول المجاورة وقد لاحظوا ايضًا على مسير هذه الحجارة خطوطًا متقطعة ممتدة من محل استقرارها الى قمة الجبل فحكموا ان الحجارة المذكورة قد انفصلت من الجبل بقوةٍ ما واستقرت على ابعادٍ تختلف بحسب القوة التي ابعدتها . وان الخطوط آثار مرورها على الارض في انحدارها . واول ما شاهدوا هذه الحجارة الهائلة والشلوم والخطوط في جبال البامير راوها في جبال اخرى في شمالي اوربا وظهر لهم انها تزداد وضوحًا كلما تقدموا الى الشمال وقد توهموا انها تتجه دائمًا من الشمال الى الجنوب فقالوا ان سببها ارتفاع مياه الاوقيانوس المتجمد الشمالي بغتةً وانبدفاع الجليد منهُ قطعًا هائلةً على الارض بقوة عنيفة ساقت امامها ما اعترضها من الحجارة وغيرها وشلمت سطوح الصخور الملساء وهذا هو مذهب الطوفان . وعضد هذا المذهب كوفيه الطبيعي الشهير وبقي معولاً عليهِ الى سنة ١٨٣٠ وحينئذٍ قام ليَل الجيولوجي الانكليزي فناقضهُ قائلاً ان الظواهر الطبيعية الحادثة على سطح الارض ليست نتيجة انقلابات فجائية لا تدرك اسبابها بل هي حادثة عن عوامل طبيعية تتم امامنا شيئًا فشيئًا تمامًا بطيئًا وان هذه العوامل المتناقضة النتائج مرجعها كلها الى القوات الناشئة التي ترفع سطح الارض والى فعل الهواء الذي يفتت الصخور ويمرّي الجبال وينقل التراب ويملأ بهِ الاودية . ثم تحقق الجيولوجيون خلافًا لما كانوا توهموهُ ان اتجاه الخطوط من الشمال الى الجنوب ليس مطردًا بل يتبع سير الماء فكيف كان مجراهُ فيكون ايضًا من الجنوب الى الشمال كما في جبال البرن وهذا الاتجاه لا يصح ان يكون حادثًا عن ثوران الابحر الشمالية . فتحوَّل فكر العلماء

حينئذٍ البحث عن اسباب اخرى طبيعية فتحقق بعض احد الطبيعيين الجرمانيين من انهار الجليد الحاضرة انها تترك في سيرها حجارة هائلة وصخورًا مثلها شبيهة بما يوجد في الطبقات السفلى وانما الفرق بينها ان القديمة اكثر امتدادًا فاستنتج من ذلك انها (اي القديمة) حصلت من انهار جليد اعظم من الموجودة الآن . ولكن لما كان بين هذا القول وبين التعاليم المعوَّل عليها حينئذٍ هوَّة عظيم لم يعبأ به . وفي سنة ١٨٤٠ نشر اكاسيز الشهير كتابًا بهذا المعنى بيَّن فيه وجود دور جليدي في الادهار الغابرة وابدى رأيه عن انهار الجليد القديمة وعن نتائج امتدادها العظيم فلشهرته انتبه كثير من العلماء الى ذلك وسافر جماعة من جيولوجيي الانكليز ومنهم ليل الى جبال الپا ليتحققوا بانفسهم فعل انهار الجليد ورجعوا متنعين مما رأوا . ثم تحقق العلماء ذلك ايضًا في جميع البلدان ذوات الجبال بوسط اوربا وشمالها وشمال اميركا وجنوبها وفي جبال اسيا الوسطى حتى ان مذهب الانهار الجليدية عم الآن وصار محكمًا من احكام الجيولوجيا . ولما تحققوا ان القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي اكسي بالجليد بعدما تكوَّنت اراضي الدور الثلاثي بقي عليهم ان يعرفوا ما هو السبب لحصول ذلك فذهبوا مذاهب شتى وارتأوا آراء متعددة انقضت بعد المباحث الطويلة الى ان سطح الارض لم يكسَ بالجليد مرةً واحدة فقط بل مرارًا متعددة في ادوار متعددة وثبت عندهم ان هذه الادوار الجليدية ترجع في ادوار منسوقة على نظام محدود . ولدى التامل في هذا النظام اخذوا يبحثون عن السبب الذي يهبط به حرارة احد نصفي كرة الارض فيبرد برْدًا شديدًا يؤذن للجليد بالدوام ازمانًا مديدة فتطلعوا الى امر مبادرة الاعتدالين والى انتقال محور دائرة الارض العظيم فسهل عليهم حل هذا المشكل . فان هذا المحور العظيم يتحرك تحركًا بطيئًا في دوران الارض حول الشمس حتى يدور دورة كاملة بالنظر الى الاعتدالين في احدى وعشرين الف سنة تقريبًا كما يعلم من علم الهيئة وفي هذه المدة يوافق بالضرورة خط الانقلابين مرتين فينطبق عليه بلحظة من الزمان . وقد حدثت الموافقة الاخيرة سنة ١٢٥٠ للميلاد وحينئذٍ كانت نقطة الراس في الانقلاب الشتوي تتاتى من ذلك ان بلغت ايام الربيع والصيف في نصف الكرة الشمالي اعظمها وطالت فصول الشتاء واشتد بردها جدًّا في النصف الجنوبي بحيث تولَّد دور جليدي لم يزل حتى يومنا لان ظروف المناخ لم تتغير من ثم كثيرًا . ثم اذا تقهقرنا عشرة آلاف وخمس مئة سنة رأينا ان نقطة الراس كانت في الانقلاب الصيفي فحصل عكس ما تقدم اي ان فصول الشتاء طالت واشتد بردها في نصف الكرة الشمالي فاحدثت عليها دورًا جليديًّا فكل ١٠٥٠٠ سنة يحصل دور بارد جدًّا شمالي ثم جنوبي على التعاقب بحيث تتوالى الادوار الجليدية على كلٍّ من نصفي الكرة كل احدى وعشرين الف سنة

فلننظر الآن الى الانهار الجليدية من جهة تاثيرها في نوع الانسان فاول ما يتضح لنا هو سبب الاختلاف العظيم بين اهل الشرق والغرب من جهة تاريخهم ولولا ذلك لكان تاريخهم يبقى في غاية الابهام . فلا يخفى ان تاريخ الانسان الشرقي اقدم جدًّا من تاريخ الانسان الغربي فان اقدم آثار الانسان التي وجدت في اوربا لا يتجاوز عمرها ٧٠٠٠ الى ٨٠٠٠ سنة حسب تعديل الجيولوجيين بناء على اقدم الآثار الموجودة حديثًا واما آثاره الدالة على تمدنه في الشرق فيصعد تاريخها كما في بلاد مصر الى ١٥٠٠٠ سنة حسب تقويم اعدل الجيولوجيين . وذلك موافق لرواية مانثون الذي اسمه بطليموس فيلادلفوس فنقل عن الكتب المقدسة لهيكل اليوبوليس العظيم تاريخ مصر منذ ايام الاولى وضمنه في ثلاثة مجلدات لم يصل الينا منها سوى بعض نقرات وفصول ذكرها المؤرخون القدماء الذين جاءوا بعده كبيرود وطوس وغيرهم . على انه لم يكن احدٌ قبل الآن يثق بصحتها لما بين التواريخ التي ينسبها الى دول مصر وبين التعاليم الشائعة من الفرق البيِّن حتى جاءت اخيرًا الابحاث الجيولوجية مؤيدةً صحتها . فاذا قيل ما هو السبب في كون تاريخ تمدن بعض شعوب المشرق يتقهقر الى ١٥٠ قرنًا مع ان اهل اوربا لم يكونوا منذ سبعة او ثمانية آلاف سنة الا قبائل متوحشة يقطنون المغاير والكهوف فالسبب واضح لمن يتدبَّر مذهب الادوار الجليدية . فان بلاد مصر لعدم وجود الجبال فيها ولاتصالها من طرفها الجنوبي بمدار السرطان آمنة من توازل

الثلج والجليد فلا تعيش نمو الانسان فيها وكذلك يقال ايضاً عن السهول الواسعة الممتدة في جنوبي آسيا من حدود البحر المتوسط الى حدود الصين . بخلاف اوربا فانها لبعدها عن المدارين واتصالها بالبحر الشمالية فالبرد يشتد فيها جداً فيتراكم الثلج على القسم الاعظم من سطحها فتحول دون نمو الانسان فيها . وهذا هو السبب في عدم ظهور آثار الانسان السابق العهد التاريخي فيها الى ما بعد تقهقر الانهار الجليدية الاخيرة . ولا يوجد فيها الاَّ بعض عظام بشرية يندر وجودها اكثر فاكثر كلما اقتربنا الى اسافل الاراضي التي تكوَّنت في الدور الرباعي

ثم يتضح ايضاً على مذهب الادوار الجليدية سبب امر آخر كبير الاهتمام كسابقيه وذلك ان من يقابل بين امم الشرق القديمة وبين الامم الحاضرة بالنظر الى نشاط القوى العقلية يستعظم الفرق بينها . أليست بلاد الهند وايران والكلدان مهد التمدن وام العلوم والصنائع (فان خرابات بابل ونينوى لا تزال موضوع اندهاش اهل هذا العصر ما يدل على ان الصنائع فيها كانت بالغة من الاتقان اعلى درجة فضلاً عن ان علم الهيئة نشأ في بابل والعلوم الرياضية كانت متسعة جداً في بلاد الهند) فما الذي استولى عليها حتى لم يبقَ لها بقية تذكر او ذكرٌ يشهر أليست البلاد التي اولدت طالس وارخميدس وهيبرخوس عتيقة منذ زمان طويل فكيف وهنت قوى هولاء الشعوب ولماذا سكنت حركتهم عن التقدم في معارج التمدن . ان سبب ذلك يتضح من دور البرد الاخير الذي استولى على نصف الكرة الشمالي فان شدته وصلت الى ابعد من حدود الانهار الجليدية بكثير (فان دور البرد الشديد المستولي الآن على نصف الكرة الجنوبي لا يزال تاثيرهُ واصلاً الى حدود راس الرجاء الصالح في افريقية وبونس ايرس في اميركا مع انه دخل في التناقص من تاريخ ١٢٥٠ سنة للميلاد) فاعالي جبال آسيا لما داهمها الثلج حينئذٍ انحبست من امام البرد والتجأت الى السهول المنحدرة نحو شطوط البحر المتوسط وخليج العجم وبحر الهند . وما دامت تلك الثلوج تبعث الهواء البارد الى الجنوب فتبرّد تلك الجهات دام المهاجرون اليها على نشاطهم العقلي الخاص بسكان البلاد الباردة فيها التمدن وانتشر في الشرق ولكن لما اخذت تلك الثلوج تذوب وتتقهقر اخذت طبائع تلك الاقاليم تتغير فاستولت عليها حرارة الجهات المدارية واستولى الخمول على سكانها واخذ نشاطهم يضعف وعزائمهم تضعف حتى سكنوا في رقدتهم التي نراهم فيها فنهض الغرب حينئذٍ اذ خلع عنه جلباب البرد القارس الذي كان كبَّل قواهُ واخذ انتاشه قروناً عديدة واباح للعالم اجمع كم ترك الاوائل للاواخر بما ابداهُ من النشاط الذي فاق كل نشاط . فان الذي اتصل اليوناني المغرب من السمة في المعارف والدقة في العلوم والاتقان في الصنائع لا تبعد عنا شهودهُ ولا يترك مجالاً للريب في انه اناله قصب السبق في ميدان الانسانية . ولكن لا فضل لاحد بذلك فالفضل لله ولا عار علينا بتحولنا فانه بحكم الدور فسيأتي زمن لا يتجاوز مئة قرن بتعديل الجيولوجيين فيه تعود الثلوج وتغطي القسم الاعظم من نصف الكرة الشمالي فتمحي تلك العواصم المأهولة كبطرسبورج وفينا وبرلين وباريس ولوندرة ونيويورك

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

فيولي اهلها الادبار من امام وجه البرد طالبين مجالاً في جنوبي اوربا وفي اماكن اخرى على شطوط البحر المتوسط ويتقهقر الغرب ويبرد هواء الشرق فيدب النشاط في عروق اهله وتوافيه السعادة بعد الشقاء وينتقل نور التمدن اليه

ان البلاد لكالعباد فانها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

ولنذكر الآن ما استفادهُ العلماء من الادوار الجليدية . فالجيولوجيون استفادوا منها معرفة اعمار طبقات الارض المختلفة بمراقبة ظواهر التجليد فيها والانتروبولوجيون استفادوا معرفة عمر الانسان من آثاره فيها . اما الجيولوجيون فتحققوا في نصف الكرة الشمالي ثلاثة ادوار جليدية واضحة اقدمها في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية والثاني في بداية الرواسب الرباعية والاخير انها رواسب التجليد الاخيرة في جبال البا واما الانتروبولوجيون فالظاهر انهم وجدوا عظاماً بشرية حتى في الطبقة الوسطى للاراضي الثلاثية اي في اقدم دور جليدي عرف الى الآن . فاذا

اضفنا ٢١٠٠ سنة مدة رجوع الدور الجليدي مضروبة في ٣ عدد الدورين الجليديين الشماليين الاول والثاني الى ٦٣٥٠ سنة التي مرّت من الدور الجليدي الشمالي الاخير الى القرن الاول للميلاد كان لنا عمر الانسان المعروف الى الآن وربما كانت الابحاث المستقبلة تبعد تاريخهُ عن ذلك ايضاً. على اننا نقول ان كل ذلك منقول عن ارباب هذا العلم فلا نجزم بصحتهِ بل نتبرّأ من تبعتهِ فلا يهلّل المعتقدون ولا يتهلل الجاحدون . اه

وصف بعض الاعمال السحريّة وكشفها

اخراج الدراهم الموضوعة في مكان من مكان غيرهِ * تفصيل ذلك ان المشعوذ يطلب من بعض الحاضرين ان يعلّم درهمًا بعلامة ويضعهُ في علبة فيطبق المشعوذ العلبة ويسلمها للرجل ويذهب ويقف امام مائدتهِ ويقول له حرّك العلبة لتسمع خشخشة درهمك وتأكّد انت والجمهور ان الدرهم لم يزل فيها فيفعل الرجل كذلك ويسمع هو والجمهور الخشخشة. ثم يأتي المشعوذ بعلبة اخرى ويفتحها امام الجميع فتظهر علبة ضمنها ثم يفتح هذه فتظهر اخرى ولا يزال يخرج علبة من علبة حتى ينتهي الى علبة صغيرة فيفتحها ويخرج منها الدرهم الموسوم ويسلمهُ لصاحبهِ امام الجميع . وبيانهُ ان العلبة التي يلقي الرجل درهمهُ فيها لها قعر كاذب فيستلم المشعوذ الدرهم فيها مائلة بحيث يزحل منها الى كفهِ . فيقبضهُ بكفهِ بخفة وصناعة حتى لا يشعر بهِ احدٌ من الحاضرين ويسلّم العلبة لصاحب الدرهم فمتى حركها يسمع منها خشخشة قطعة من القوتيا موضوعة في طبقة منها لان للعلبة اكثر من طبقة . واما المشعوذ فيذهب ويقف امام مائدتهِ حيث تكون العلبة المخصوصة العلب محجوبةً عن نظر الناظرين بامتعة اخرى بينها وبينهم ويلقي الدرهم في اصغرها . وهذه العلب مصنوعة بحيث انها تنطبق كلها دفعة واحدة ولكن لا تنفتح الاّ واحدة فواحدة . وبعد ان يلقي الدرهم في اصغرها يطبقها كلها دفعة واحدة ويرجع في طرفة عين ويبتدئ بفتحها واحدةً فواحدةً حتى لا ينتهي الى اصغرها الاّ بعد مضي حصة من الزمان فلا يخالج قلب احدٍ من الناظرين انهُ استطاع ان يضع الدرهم ويطبق تلك العلب سريعًا كما فعل

اخراج اجسام غريبة من ابدان الناس * تفصيل ذلك ان المشعوذ يمدُّ يدهُ الى وجه معاونهِ فيخرج منهُ دراهم او الى اذنهِ فيخرج منها بيضًا او يدخلها تحت طوقهِ فيخرج منهُ ليمونًا او يدخل الدرهم من وجه بلاطة فيخرجهُ من قفاها حتى يخيل للناظرين ان الدرهم نفذ البلاطة . وبيانهُ ان اوّل الامور التي يتمرّن عليها المشعوذ منذ صغرهِ خفة اليد والقبض بباطن الكف فيمسك بباطن كفهِ دراهم وليمونًا وبيضًا وساعات وما اشبه بمجرد انقباض عضلات الكف دون ان يطوي يدهُ عليها فلا